الدين هو العلاج الأول للبشرية

أثر التدين فى العالم الذى واجهه الرسول

للاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق

كان أمام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد شرفه الله برسالته بين قوم ضالين مضلين ، جهاد طويل فى نواح عديدة ، وكان عليه أن يحل عقدا متعددة ، ويجتاز عقبات كثيرة ، حتى يصل الى ما يريد من اصلاح العرب والعالم كله ، ولكنه رأى أن مشكلة العقيدة هى أخطر ما يواجهه ، وانه اذا عالج هذه المشكلة وانحلت هذه العقدة فقد صار الطريق معبدا ميسرا لسالكيه .

ومن ثم ، نجد القرآن يعنى أشد العناية بالعقيدة قبل كل شىء ، فهو يكثر من بيان بطلان ما عليه العرب وغيرهم من عقائد فاسدة لا تتفق والعقل ، ويصرفهم بكل سبيل عن عبادة الاوثان والاصنام والشمس والقمر وعيسى عليه السلام ، الى سائر ألوان الشرك وضروبه .

والرسول بجانب هذا ، يجعل كل جهده وقفا على تربية القلة التى آمنت به أولا ، والتى كانت تزيد على مر الايام ، تربية دينية صحيحة ، تربية شاملة للعقل والقلب والاخلاق وما تستند اليه الاخلاق من غرائز وميول .

فاذا العقدة الكبرى قد انحلت ، واذا العرب ومن تبع الرسول صلى الله عليه وسلم ، من غير العرب ، ينتقلون من الجاهلية الى الاسلام الصحيح ، واذا بهذا الدين الحق ، يملك على الجميع عقولهم وقلوبهم وميولهم ، واذا بهم ينزلون على حكم هذا الدين وأمر رسوله المصطفى ونواهيه فى جميع أحوالهم وشئونهم صغيرها وكبيرها .

وحينئذ نراهم يتغيرون فى كل شىء ، ويصيرون على غير ما كانوا عليه ، فقد انتقلوا من عبادة الاصنام والمخلوقات الى عبادة الله وحده ، فصاروا لا يرجون ولا يخافون سواه ، وصاروا رحماء فيما بينهم ، أشداء على أعدائهم ممن لم يتبعوا ما أنزل الله من الهدى والفرقان ، وأصبحوا هداة مهديين ، بعد أن كانوا ضلالا ضالين . وأصبحت الدنيا بكل أسرها وفتنتها لا تساوى عند الواحد منهم غدوة أو روحة فى سبيل الله ، بل صار الواحد منهم يعتقد بحق أن الله ورسوله أحب اليه من ولده وماله وسائر ما فى الحياة من جاه ومتاع .

ذلك بأن الايمان مدرسة للتربية الدينية والخلقية ، مدرسة لا معلم فيها الا رسول الله وشريعته ، ولا هدف لها الا تحقيق كل المعانى النبيلة والقيم العالية من الحق والخير فى كل ضروبه ، ولا قانون يسودها الا قانون الحق والاخلاق الفاضلة التى تعالج النفس الانسانية فتنصرف عن رذائل الاعمال الى مكارمها ، كما تجعل الانسان يثبت أمام المطامع الدنيوية والشهوات الطبيعية حتى تصير نفسه صافية ومرآة لأنوار الله وفيوضه العلوية ، فان وقع مع هذا فى اثم سارع الى تطهير نفسه مهما لقى فى هذا من الالم والذلة أمام الناس .

وتاريخ الاسلام زاخر بما كان من أثر الاسلام والتدين به فى نفوس المؤمنين به ، وبما كان منهم من أمور وأفعال تعد من الخوارق ، ولا حاجة لذكر الكثير من هذا الذى يشهد به التاريخ الصادق الامين ، فنكتفى بالاشارة الى البعض القليل :

١ - لقد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من «المستضعفين» بمكة ، فأخذ المشركون فى تعذيبهم العذاب الأليم بكل ألوانه ، وذلك رغبة فى فتنتهم وعودتهم الى الشرك ، ولكنهم صبروا على ما ابتلوا منه وصمدوا على الدين الحق . وكان من هؤلاء الصابرين بلال بن رباح ، وهو مملوك لأمية بن خلف ، فكان أمية يخرجه اذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول بلال وهو فى هذا البلاء : أحد ، أحد !.. واستمر صابرا على ما يلقى حتى خلصه منه سيدنا أبو بكر بأن اشتراه وأعتقه !

٢ - وهؤلاء ستة من الصحابة يرسلهم الرسول صلى الله عليه وسلم لقبيلة طلبت من الرسول ان يرسل اليهم من يعلمهم الاسلام ، وكان فيهم زيد بن الدثنة ، ولكن هؤلاء الذين طلبوا هذا الطلب من الرسول غدروا بهؤلاء الأبرار فى الطريق ، وانتهى الامر بقتل البعض وبيع البعض عبدا مملوكا . وكان ممن بيع زيد بن الدثنة ، اذ اشتراه صفوان بن أمية ليقتله ، فلما قدم للقتل قيل له : أنشدك الله يا زيد : أتحب أن محمدا عندنا الان فى مكانك تضرب عنقه وانك فى أهلك ؟ فقال : والله ما أحب أن محمدا الان فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى !.. وهنا يقول أبو سفيان - وكان لم يسلم بعد - ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ! ثم قتل شهيدا ، رضوان الله عليه .

٣ - وهذا عبد الله بن أبى - رأس المنافقين - يقول لبعض أصحابه ، وكانوا فى غزوة من الغزوات : لئن رجعتم الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل ، يعنى بالاعز نفسه ، وبالأذل النبى صلى الله عليه وسلم . ولما علم

ابنه عبد الله بذلك ، وكان مؤمنا بقلبه ولسانه ، قال لأبيه : والله الذى لااله الا هو ، لا تدخل المدينة حتى تقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأعز وأنا الاذل ، فقال ذلك كما يذكر الامام القرطبى فى تفسيره . ومع هذا لم يدعه يدخل بيته حتى قال له الرسول : « خله ومسكنه » ، فقال : أما اذا جاء أمر النبى صلى الله عليه وسلم .. فنعم !

٤ ـ وقد كان الزنا معروفا من ضروب اتصال الرجل بالجاهلية ، وكانوا لا يرون فى ذلك بأسا ، ثم جاء الاسلام فحرمه تحريما قاطعا ، كما حرم الذرائع التى تؤدى اليه ، الا أن الانسان غير معصوم من أن يلم بذنب . ولهذا وصف الله تعالى نفسه بأنه تواب وغفار لمن يعمل السوء بجهالة ثم يندم ويتوب الى الله توبة صادقة .

ولذلك جاء فى القرآن قوله تعالى : « **انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب** » وقوله : « **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** » .

وقد حدث ـ كما يروى الامام مسلم فى صحيحه ـ أن « ماعز بن مالك الأسلمى » أتى الرسول مقرا بأنه زنى ، فرده الرسول مرتين وسأل قومه ان كان بعقله شىء ، فلما شهدوا بصلاحه وبأنه لا بأس به وبعقله وأتى اليه ثالث مرة ، أمر به فرجم .

قال : فجاءت الغامدية ، وهى امرأة من غامد من الأزد ، فقالت : يارسول الله .. انى قد زنيت فطهرنى ، وأنه صلى الله عليه وسلم ردها ، فلما كان الغد قالت : يا رسول الله .. لم تردنى ؟ فوالله انى لحبلى . فأمرها بأن تذهب حتى تلد ، فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة وقالت : ها أنذا قد ولدته ، فقال : اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته ، أتته بالصبى فى يده كسرة خبز وقالت : هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام . فدفع الرسول الصبى الى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفروا لها الى صدرها ، وأمر الناس فرجموها .

هذا ، وليس عجيبا أن يقع انسان فى اثم وهو قريب عهد بحياة الجاهلية وما فيها من آثام ، ولكن العجيب الرائع حقا أن يندم الآثم على ما اجترح ويقر علانية به طالبا التطهر بما ألم به ، وقد ستره الله عليه ! ولذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى شأن ماعز : « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم » . كما يقول فى الغامدية : « والذى نفسى بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » !.. ثم جعل يستغفر للاثنين هو وأصحابه رضوان الله عليهم .

٥ ـ ومن المعروف أن العرب كانوا فى جاهليتهم أحلاف غارات وسلب ونهب ، وكان الواحد منهم لا يرى عيبا فى أن يغير على من يعتبر من أقرب الناس اليه ، كما يقول شاعرهم :

وأحيانا نغير على أخينا اذا لم نجد الا أخانا

ولكن قد آن لهم أن ينتهوا عن هذا ومثاله ، وألا يطمع أحد منهم فى أخذ ما ليس له بحق ، فقد جاء الاسلام وحرم عليهم الخيانة والظلم وكرهه الى قلوبهم ، وألزمهم الامانة وحببها الى قلوبهم ، فأخذوا أنفسهم بذلك فى جميع أمورهم .

ها هو ذا الامام أبو جعفر الطبرى ، المؤرخ الكبير المعروف ، يقول : لما هبط المسلمون « المدائن » وجمعوا الأقباض (الغنائم المنقولة) ، أقبل رجل بحق معه فدفعه الى صاحب الاقباض ، فقال هو والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه ! فقالوا : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل أمرا ، فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله ! ما أخبركم لتحمدونى ، ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه ! فأتبعوه رجلا حتى انتهى الى أصحابه فسأل عنه ، فاذا هو عامر بن عبد قيس .

فهذا رجل من عامة المسلمين مغمور غير معروف ، يؤدى الامانة فى حال كان موضع العجب ، ولم يكن فى ذلك صادرا على الحفاظ على أصله أو نسبه ، ولكنه كان كذلك لانه أخذ نفسه راضيا مسرورا ، حامدا الله سبحانه وتعالى بالاسلام وتعاليمه .

وبعد .. من هذه الشواهد ، وغيرها كثير وكثير يعز على التعداد والحصر ، نرى أثر الايمان الصحيح والتدين الصادق ، كما نرى كيف كان المسلمون فى التزام الدين وأوامره ووصاياه ، وكيف صاروا يحبون الله ورسوله ، أكثر من أبنائهم وآبائهم وكل شىء آخر فى الحياة كما عرفنا من حادث عبد الله بن أبى وابنه الصادق الايمان ، وكيف صلحت نفوسهم وقلوبهم واستقامت عقولهم ، فدفعهم ذلك كله الى جلائل الاعمال التى لم يعرف التاريخ مثلا تدانيها . ولا عجب ! فقد تطهرت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، وأصبحوا من عباد الرحمن وأوليائه وصفوة خلقه ، وذلك أسمى درجات التصوف الحقيقى الذى يصل الانسان بربه سبحانه وتعالى .

ان الاسلام والعمل به قد نقل أولئك العرب من حياة الى حياة ، ومن الفوضى الى النظام ، ومن الذل الى العز . وهذا لأن ايمانهم كان يعمر القلب ويفيض منه ، وكان يقوم على القول والعمل ، لا على القول وحده كما هو حال الكثير هذه الايام ، ولأنهم رأوا فى الدين نظاما كاملا للحياة ، فدانوا له عن اقتناع ورضا ، وصاغوا حياتهم كلها على ما تقتضيه تعاليمه التى باتباعها عز الدنيا وسعادة الآخرة .

ومن ذلك يتبين لنا مقدار الحاجة الى التدين بالاسلام الصحيح ، وأن هذا هو العلاج الحاسم للعصر الذى نعيش فيه ، بل لكل عصر يأتى بعده . وربما تناولنا ذلك بشىء من التفصيل فيما يأتى من الحديث ان شاء الله تعالى ، وهو المستعان الموفق لكل خير .

« محمد يوسف موسى »